

الْخُسْرَانُ

عناصر الموضوع

٣١٢	مفهوم الخسران
٣١٣	الخسران في الاستعمال القرآني
٣١٤	الأنفاذ ذات الصلة
٣١٥	أسباب الخسران
٣٣٨	نماذج من الخاسرين في القرآن
٣٤١	وسائل النجاة من الخسران
٣٤٩	عقوبة الخاسرين

مفهوم الخسران

أولاً: المعنى اللغوي:

هي صيغة مبالغة من لفظة خسر: «الخاء والسين والراء أصل واحد، يدل على النقص، فمن ذلك الخسر والخسران، كالكفر والكفران، والفرق والفرقان، ويقال: خسرت الميزان وأخسرته، إذا نقصته»^(١).
والخسر والخسران انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته^(٢).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرّفه الشنقيطي قائلاً: «والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه جل وعلا؛ لأن الإنسان إذا غبن في حظوظه من ربه جل وعلا فقد خسر الخسران المبين»^(٣).
ومن خلال المعنى اللغوي السابق، ومعاني الآيات التي وردت فيها لفظة الخسران يمكن أن يقال في التعريف الاصطلاحي لكلمة الخسران: «هو ضلال السعي وفقدان الأموال والأهل في الدنيا والآخرة، والوقوع في الهلاك والضلال»، أو «هو فقدان الأعمال والأموال والأهل والأجر والثواب في الدنيا والآخرة، بسبب ضلال السعي والانحراف عن دين الله».

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٨٢.

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٣١٢.

(٣) انظر: العذب النمير، ٣/ ٨٥.

الخسران في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (خ س ر) في القرآن الكريم (٦٥) مرة^(١).
والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥	﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]
الفعل المضارع	٣	﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُخَسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجن: ٢٧]
المصدر	٩	﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]
اسم فاعل	٣٤	﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]
اسم تفضيل	٤	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ﴾ [النمل: ٥]

وجاء الخسران في القرآن على خمسة أوجه^(٢):

- الأول: النقص، ومنه قوله: ﴿وَلَاذًا كَالْوَهْمِ أَوْ رَزُوهُمْ يَخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣] أي: ينقصون.
- الثاني: الغبن، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥] أي: الغبن المبين.
- الثالث: العجز، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الدَّمَ بِنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أي: إذا لعجزة.
- الرابع: الضلال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩] أي: ضل ضللاً مبيناً.
- الخامس: العقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] أي: في العقوبة.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٠٢-٢٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الضلال:

الضلال لغة:

مصدر (ضَلَّ)، والذي يعني الضياع والذهاب والغياب، وكل من زاغ عن المطلوب والقصد يسمى (ضالًّا)، و(يُضَلُّ ويُضَلُّ) لغتان عند العرب^(١).

الضلال اصطلاحًا:

«كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا قليلًا كان أو كثيرًا»^(٢).

الصلة بين الضلال والخسران:

العدول عن الطريق المستقيم يبعد المرء عن الوصول لمقصده أكثر فأكثر، وبالتالي لا يحقق المرء غايته أبدًا، وهذا من الخسران.

٢ الفلاح:

الفلاح لغة:

«الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على شق، والآخر يدل على فوز وبقاء، فلح فلاحًا: ظفر بما يريد»^(٣).

الفلاح اصطلاحًا:

اسم جامع للظفر بالمطلوب، والنَّجاة من المرهوب^(٤).

الصلة بين الفلاح والخسران:

العلاقة بينهما التضاد؛ إذ الضلال العدول عن الطريق المستقيم، والابتعاد عن الوصول للمقصود والغاية، وأما الفلاح فهو الظفر بالمطلوب.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣ / ٣٥٦، لسان العرب، ابن منظور ١١ / ٣٩٠، المصباح المنير، الفيومي ٢ / ٣٦٣.

(٢) الكلبيات، الكفوي ص ٥٦٧.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤ / ٤٥٠.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١ / ٣٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١ / ١٨٢.

بالجنة ورضوان الله، وأما من يكفر بالله، ويجحد بالإيمان فقد باء بغضب من الله، وضل ضللاً بعيداً، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٣٦].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

فأي خسران بعد خسران الإيمان؟! إنه أعظم مصيبة على الناس في هذا الوجود؛ فالكفر والإشراك بالله يعدّ من أعظم الكبائر التي حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم منها، فعن أنس رضي الله عنه قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعظم الكبائر فقال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور)^(٢).

ويعدّ ذلك أيضاً من السبع الموبقات التي تلقى صاحبها في نار جهنم، وبهذا باء بالخسارة في الآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم ٢٦٥٣.

أسباب الخسران

معلوم أن أسباب الخسران عديدة، وأحببنا أن نبرزها ونوضحها من أجل أخذ الحيلة والحذر من الوقوع فيها؛ وذلك لأجل النجاة يوم القيامة من عذاب الله، والفوز برضوانه والجنة، ولم لا نكون مثل حذيفة بن اليمان الذي كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشر، مخافة أن يصيبه؟ فقد روى أبو إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم)^(١).

وسوف نورد هذه الأسباب في النقاط الآتية:

أولاً: الكفر بالله تعالى:

حياة الإنسان قائمة في الحياة الدنيا على الإيمان بالله بكل ما أمرنا به، ونهانا عنه، ومن يحقق الإيمان فقد نجا وفاز يوم القيامة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦٠٦.

عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله!، وما هن؟ قال: الشرك بالله...) (١).

ولكن من يكفر بالله وينكر وجوده ولقاءه يوم القيامة فقد خسر خسرانا مبيّنا؛ لأنه كفر بأهم ركن، ألا وهو الإيمان بالله وبلقائه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَقَّ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَفْتَةً فَالُوا لِيَخْسَرُنَا عَلَى مَا قَرَّبْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠]؛ وبهذا خسروا الدنيا والآخرة؛ لأنهم لم يعملوا ليوم البعث وكفروا به، وقصروا أمرهم على الحياة الدنيا، فضيعوا أنفسهم وحظهم من الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وبهذا فقد بطلت وخابت كل الأعمال التي يقوم بها الكافر، حيث لا تنفع صاحبها يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُنَّ حِسَابَهُ وَاللَّهُ مَرِيعٌ الْحَسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وسوف يتناول البحث الآيات التي تبين الخسران الذي يناله هؤلاء الكافرون بربهم، وذلك فيما يأتي.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

وأشار الطبري إلى اختلاف أهل التأويل في الذين عناهم الله جل ثناؤه بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فقال بعضهم: هم المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، ذكر ذلك عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال: هؤلاء أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بكتاب الله وصدّقوا به.

وقال آخرون: بل عنى الله بذلك علماء بني إسرائيل الذين آمنوا بالله، وصدّقوا رسله، فأقروا بحكم التوراة، فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند الله، ذكر ابن زيد في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال: من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم من يهود فأولئك هم الخاسرون.

ورجح الطبري هذا القول، مستدلاً بأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله، وتأويلهم إياه على غير تأويله، وادّعائهم على الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٢٦٢.

وأما قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: هؤلاء الذين أخبر عنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته، فيصدقون به، ويدعون لما أمر به ونهى عنه، ويعملون بموجبه، وهؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَّةً ءَآخِرًا وَلَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُنَافِقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

وقال أيضًا: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ءَاسِنَّةً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

هذا التفسير على أساس أن الكتاب، هو كتاب أهل الكتاب الذي آمنوا به ولم يحرفوه عن مواضعه، ولم يكتبوه بأيديهم، ويلووا به ألسنتهم، ويقولوا هو من عند الله، وما هو من عند الله.

ولكن من المفسرين من قالوا: إنه القرآن الكريم، وإطلاق اسم الكتاب عليه من غير ذكر أنه القرآن؛ للدلالة على كماله وأنه لا يماثله من الكتب كتاب، ولو كان سماويًا؛

الآباطيل، ولم يجر لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ موجهاً إلى الإخبار عنهم، وليس لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها، وبالتالي فالذي هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجهاً إلى أنه خبر عن قص الله جل ثناؤه في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل^(١).

وأما قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَتَّىٰ تَلَوتَهُ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: يتبعونه حق اتباعه، وقال آخرون: يقرءونه حق قراءته.

والمعنى: الذين آتيناهم الكتاب يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جئتكم به من الحق من عندي، يتبعون كتابي الذي أنزلته على رسولي موسى صلوات الله عليه فيؤمنون به، ويقرون بما فيه من نعتك وصفتك، وأنتك رسولي، فرض عليهم طاعتي في الإيمان بك، والتصديق بما جئتكم به من عندي، ويعملون بما أحللت لهم، ويجتنبون ما حرمت عليهم، ولا يحرفونه عن مواضعه، ولا يبدلونه، ولا يغيرونه عما أنزلته عليهم بتأويل ولا غيره، وقيل: مراعاة اللفظ عن التحريف، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه^(٢).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٦٦٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٦٦٤، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٣٩٣.

لأنه الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه^(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١] أي: ومن يكفر بهذا ويجحد بما أنزل إليك، وينكر البشارة فيك، وذلك بتحريف كتبهم لتوافق أهواءهم، ويجحد بآياته وإنكار أحكامه، وما فيه من فرائض الله، أولئك هم الذين خسروا علمهم وعملهم، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله، واستبدلوا بها سخط الله وغضبه.

وقيل: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الضالون الهالكون الذين خسروا سعادة الدنيا، ونعيم الآخرة؛ ذلك لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والكفر بالإيمان، وقيل: بتجارتهم التي كانوا يعملونها بأخذ الرشا على التحريف، وحكم سبحانه عليهم بالخسران مؤكداً بضمير الفصل «هم»، وبالجمله الاسمية^(٢).

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المغبونون في صفقتهم؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، والآية من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يصرح بنسبة الإيمان

بالباطل، والكفر والخسران إليهم، بل بالإيهام^(٣).

وهناك الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على خسران هؤلاء الكافرين في الدنيا والآخرة، والمحذرة من الكفر بالله سبحانه وتعالى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وقوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَأَلُوا اللَّهَ أَلَيْ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ كَفَرُ بِاللَّهِ بَيِّنُ وَيَبَيِّنْكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

قال سيد قطب: «الخاسرون على الإطلاق، الخاسرون لكل شيء، الخاسرون للدنيا والآخرة، الخاسرون لأنفسهم وللهدى، والاستقامة، والطمأنينة، والحق والنور.

إن الإيمان بالله كسب، كسب في ذاته، والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله، إنه

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١/٦٦٥، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١/٣٨٩.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١/٥٨٧، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ١/٣٩٠، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ١/٢٢٤.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/١٥، المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ٤/١٨٨.

وإن ترك العباداة والطاعة لله يوقع الإنسان في خسران لا يحمد عقباه في العاجل والآجل.

قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْبَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ، فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذِّبْنَهَا عَذَابًا نَّكَرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٨-٩].

يخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن كثير من أهل القرى الذين خالفوا أمر ربهم، يعني: أبت وعصت عن أمر ربها، وقيل: العتو المعصية، وقيل: العتو مجاوزة الحد في المعصية، وقيل: أعرضت عنه على وجه العتو والفساد، وقيل: تمردت وطفغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، فكذبوهم ولجوا في طغيانهم يعمهون.

فحاسبها الله حسابًا عسيرًا، أي: جازاها الله بعملها، ويقال: حاسبناها في الآخرة حسابًا شديدًا، وقيل: بالاستقصاء والمناقشة، وعذبها عذابًا نكرًا، وعبر بالماضي عن المستقبل: دلالة على التحقيق^(٣).

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم، فقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝﴾ أي: فجنّت ثمار ما غرست أيديها، ولا يجنى من الشر إلا الشر، كما جاء في أمثالهم: «إنك لا تجني

طمأنينة في القلب، واستقامة على الطريق، وثبات على الأحداث، وثقة بالسند، واطمئنان للحمى، ويقين بالعاقبة، وإن هذا في ذاته لهو الكسب؛ وهو الذي يخسره الكافرون»^(١).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان)، وفي آخر الحديث (كل الناس يغدوا، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)^(٢).

ثانيًا: التكذيب:

إن التكذيب والجحود سواء أكان بالله أم بآياته أم برسله أم بالبعث من أقيح أنواع التكذيب، وهو سبب رئيس للخسران في الدنيا والآخرة، ونبين خطورة هذا السبب فيما يأتي:

١. التكذيب بالله تعالى.

إن التكذيب بالله تعالى وعدم طاعته فيما أمر لهو أكبر خسران يناله الإنسان في حياته. أما أولئك الذين حسبوا أنهم خلقوا لغير طاعة ولا عبادة، فينكر الله عليهم ذلك بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ۝﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

(١) في ظلال القرآن، ٢١/٢٧٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٥٣٤.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢٨/١٤٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى، ١٠/٥٩٨٣.

من الشوك العنب»^(١)، «فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذي لا يقدر قدره»^(٢).

وقيل: «المراد: حساب الآخرة وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال، ويلقون من الخسر»^(٣).

٢. التكذيب بآيات الله.

إذا أردنا التعرف على المقصود بآيات الله، ترى هل يقصد بها كلام الله الموحى به إلى رسله ليلبغوا عنه شرعه ودينه عليهم الصلاة والسلام فقط؟

لا شك أن هناك معنى آخر للآيات، فإن آيات الله قد تشمل العلامات، والأدلة، والبراهين التي أبرزها الله لعباده من أجل هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٥٣) [فصلت: ٥٣].

ولكن هناك من ختم الله على قلوبهم فجحدوا بهذه الآيات، وكفروا بها، بل أنكروها وكذبوا من أتى بها أو أبرزها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾^(٥٤) [الأنعام: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُفْرًا لَا يُوقِنُوا

(١) المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، ٤١٦/١.

(٢) تفسير المراغي، ١٤٩/٢٨.

(٣) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٥٩٨٣/١٠.

يَهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

فكانت عاقبتهم الضياع والهلاك، بخسران أنفسهم وأهليهم، وخسران كل شيء من رحمة الله، ومغفرته، والفوز بجنته يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٤) [آل عمران: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٥) [آل عمران: ١٩].

وستتناول الآيات التي تبرز الخسران الذي سوف ينالونه من وراء كفرهم بآيات الله، وذلك فيما يأتي.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٦) [يونس: ٩٥].

الخطاب في هذه الآية موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، لكن المراد به غيره؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم على يقين مما جاء به أنه الحق، فبعد أن اشتد الموقف وتأزم في مكة بعد حادثة الإسراء، وبعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وأبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتداد الأذى على الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، وبعد تعثر الدعوة في مكة بسبب عناد قريش.

فبعد هذا كله يوجّه الله سبحانه خطابه

إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يكون من الشاكين في صحة الإسلام، وأنه الدين الحق الذي يأبى الله إلا أن يظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقوله: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ نفساً وعملاً، وهذا كله من باب التهيج والتثيت، وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: «المراد ممن عنده شك وارتباب، وقد كان الناس في أول عصر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاث فرق: مصدقين، ومنكرين، ومتوقفين، فخطبهم الله تعالى بهذا الخطاب»^(١).

ومن الآيات الدالة على خسارة الكافرين المكذبين بآيات الله، قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

٣. التكذيب برسל الله.

إن التصديق برسل الله والإيمان بهم جميعاً هو ركن من أركان الإيمان،

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٨٢٠/١١، أيسر التفاسير، الجزائري، ٥٠٨/٢، صفوة البيان لمعاني القرآن، لحسنين مخلوف، ص ٢٨٣، المقتطف من عيون التفاسير، للمنصوري، ٤٩٨/٢.

والتكذيب بهم ينفي الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقال أيضاً: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [١٥] لَا تَمْنُوا أَنَّهُ لَكُمْ كُفْرُكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأْتُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فكل من وقع في الاستهزاء برسل الله وكذبهم في رسالتهم، لا شك أنه سيخسر خسراناً مبيئاً بدخول جهنم، وبئس المصير. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا﴾ [الكهف: ١٠٦].

وقد ذكر الله ذلك الخسران لهؤلاء المستهزئين بشكل واضح وصريح في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [١٠] قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [١١] قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٢] [الأنعام: ١٠-١٢].

يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أهل الكفر الذين كثيراً ما

سخرُوا من قبل بالرسل السابقين، وهذا من باب التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، لما كان فيه من بلاء وإبتلاء، فقد ابتلي من المشركين بالإنكار والمعاندة، وطلب الآيات المعجزات، ولا يقصدون بذلك إلا المهاترة، وقد سبق إنكارهم كل دليل يساق إليهم، فابتلى الله النبي صلى الله عليه وسلم باستهزائهم والسخرية منه، وقد أكد الله سبحانه وتعالى الاستهزاء بالرسل بـ(قد) وبـ(اللام) في قوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ﴾.

وبسبب هذا الاستهزاء نزل ما نزل من عذاب بأمر الله، وبأيدي المؤمنين حيث أحاط بهم الأثر المؤلم بسبب سخريتهم^(١). ثم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهؤلاء المستهزئين: سافروا في الأرض، وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة، وجناتهم مغبرة، وأراضيهم مكفهرة، فإن كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لا حقون، وبعد هلاكهم هالكون^(٢).

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

جعل الله الكفر في هذه الآية نتيجة للخسران، فالخسران بدايته، والكفر نهايته، أو هما متلازمان، فالخسران سابق ولاحق؛ لأنه يترتب على الكفر خسران متصافر.

والخسران الذي يسبق الكفر، هو خسران الفطرة، فلا يكفر بالدليل القاطع إلا بخسران فطرته، وخسران الإدراك السليم، وخسروا عقولهم إذ سيطرت الأوهام عليهم، وخسروا نفوسهم فصارت معوجة، وخسروا قلوبهم فصارت مظلمة، وإذا كانت كل مداركهم قد سدت فهم لا يؤمنون؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلب مخلص، وعقل مدرك، وإذعان للحق إذا بدت معالمه، وظهرت أماراته.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عبر بالمضارع للإشارة إلى أنهم لا يكون الإيمان شأنًا من شئونهم على الدوام؛ ذلك لأن من امتلأت نفسه بالأوهام، وصارت عشا لها، وضلت عقولهم لا يمكن أن تدعن لشيء، بل هي دائماً مضطربة حائرة تتقل من ضلال إلى ضلال^(٣).

٤. التكذيب بالبعث.

يؤمن المسلم بأن لهذه الحياة الدنيا ساعة أخيرة تنتهي فيها، ويوماً آخرًا ليس بعده من يوم، ثم تأتي الحياة الثانية في الدار الآخرة،

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٣٥١٨/٦، زهرة

التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/٢٤٤٤.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١١٨/٢.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة،

٥/٢٤٥٠.

فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴿٣١﴾ [الأنعام: ٣١].

تصور لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة للكافرين الذين يكذبون باليوم الآخر، وينكرونه، ألا وهو يوم الحساب والجزاء، وبهذا خسروا كل ما ربحه المؤمنون من فوز وثواب لتفريطهم في طاعة الله وعمل الخير؛ فكانوا كالحيوان الذي يعيش ليأكل وليس له غاية أسمى وأعظم من ذلك، فيفقد كل المعنويات العالية، ولأنه يرتع في الشهوات الموبقة؛ ولأنه يكون في تناحر مستمر، إذ لا يخشى الله ولا يرهب عقابه، وأخيراً يخسر رضوان الله وجنته، ويتلقى العذاب الذي يقع عليه يوم تقوم الساعة (٢). «وقد وصفوا بالخسران؛ لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، فعظم خسرانهم في ذلك البيع» (٣).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: حتى فوجئ الكافرون بالساعة، أي: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، والتي لا يعلم أحد مجيئها غيره سبحانه وتعالى.

فإن قيل: الساعة تجئ من غير علم بوقتها للجميع، فكيف تكون بغتة للذين كذبوا بقاء الله دون غيرهم.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٢٤٨٠/٥، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٩٦/٧.

(٣) الوسيط، الواحدي ٢/٢٦٣.

فبيعت الله سبحانه الخلائق بعثاً، ويحشرهم إليه جميعاً ليحاسبهم، فيجزى الأبرار بالنعيم المقيم في الجنة، ويجزى الفجار بالعذاب المهين في النار (١).

ولكن هناك من ينكر البعث، ويكفر به، معتقداً أن الحياة الدنيا هي الحياة الباقية، ولا حياة أخرى بعدها.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُعْطُوا قُلُوبًا وَلَئِن رَّوَيْنَا لَنُتَبِّهَنَّهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۖ وَكَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

إنهم أخطأوا فيما اعتقدوه؛ لأن الأدلة والبراهين تثبت بأن هناك حياة أخرى، يحاسب الإنسان فيها على أعماله في الحياة الدنيا، وأنها هي الحياة الباقية الدائمة بعد الحياة الزائلة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْسُوا بِأَعْمَلِهِمْ ۚ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾ [الزلزلة: ١-٨].

ومن أصر على كفره وجحوده بالبعث فقد خسر خسراناً مبيئاً.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصِرُنَا عَلَنَ مَا

(١) انظر: منهاج المسلم، الجزائري، ص ٣٩.

الجواب على ذلك: إن الذين آمنوا بقاء الله تعالى يتوقعونها، وإن لم يعلموا بوقتها، أما الذين كذبوا فهم يكفرون بها فيفاجئون بها، وإن الذين آمنوا يرجون لقاء ربهم، ويرجون رحمته، وأما الذين كفروا بقاء الله تعالى فلا رجاء عندهم.

وقد عبر عن قيام الساعة واليوم الآخر بقاء الله تعالى، تشريقاً لذلك اليوم، وفيه ترغيب في الإيمان باللقاء، وترهيب من تكذيبه، وسميت القيامة ساعة؛ لأنها تحمل أشد الأهوال؛ ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة، حياة فانية وأخرى باقية، حياة عمل، وحياة جزاء^(١).

وقيل: «لأنها تفاجئ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا هو تعالى»^(٢).

﴿قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَرْنَا فِيهَا﴾ يعني: منكري البعث، وهم كفار قريش، ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد، فقالوا: ياندامتنا ويا حسرتنا على ما قصرنا في الحياة الدنيا؛ إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجيننا، أو على ما فرطنا في شأنها، ومراعاة حقها، والاستعداد لها،

بالإيمان بها، واكتساب الأعمال الصالحة، وعلى ما فاتنا من تهذيب الأخلاق المهيئة للسباق، ولا خسران أعظم من هذا^(٣).

ثالثاً: فعل المحرمات:

حذرنا الله سبحانه وتعالى من ارتكاب المحرمات وفعلها، وذلك كالزنا وشرب الخمر واللواط والقتل والربا؛ لأنها سبب في خسران الإنسان لدنياه وآخرته، وفي نيل غضب الله وسخطه، فلا بد من إبرازها وتوضيحها لأخذ الحيطة والحذر من الوقوع فيها؛ وذلك لأجل النجاة يوم القيامة من عذاب الله، والفوز برضوانه والجنة. وسوف نورد -إن شاء الله- بعضاً من هذه المحرمات بصورة مختصرة وبيان الخسران المترتب على فعلها وارتكابها.

١. قتل النفس.

إن الإسلام حفظ للنفس الإنسانية حرمتها، إذ أعلى من شأن الإنسان لمجرد آدميته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وعلى قدر ما أعلى الإسلام من قدر الإنسان، فإنه اشتد في النكير على من يعتدي على حياته بغير حق، فجعل الله قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعاً؛

(١) انظر: المصدر السابق، ٢/ ٢٦٤، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٨١.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٢٢٨٥.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢/ ٦٢٥، محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٢٢٨٦.

أُولَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ أَفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فهذه الآية تبين لنا الخسارة التي ينالها
الإنسان في الدنيا والآخرة لكونه ارتكب
جريمة شنعاء، ألا وهي قتل الأولاد بغير
ذنوب، وهي نفس حرم الله قتلها بغير حق.

يقول محمد رضا: «هذه الآية حكمت
على مشركي العرب حكمًا حقًا وعدلاً،
وهو أنهم خسروا بقتل أولادهم وبوادر
البنات، خسارًا يستلزم خسران كل ما كان
يرجى من فوائدهم من العزة والنصرة، والبر
والصلة والفخر والزينة، والسرور والغبطة،
كما يستلزم خسران الوالد القاتل لعاطفة
الأبوة ورأفتها، وما يتبع ذلك من القسوة
والغلظة والشراسة، وغير ذلك من مساوئ
الأخلاق التي يضيق بها العيش في الدنيا،
ويترتب عليها العقاب في الآخرة، ولذلك
علل هذا الجرم بسفه النفس، وهو اضطرابها
وحماقتها، وبالجهل أي عدم العلم بما ينفع
ويضر، وما يحسن ويقبح.

ثم بعد هذا بين أنهم حرّموا ما رزقهم الله
من الطيبات، وهذا سفه وجهل أيضًا... ثم
بين نتيجة الأمرين؛ بأنهم قد ضلوا فيهما وما
كانوا مهتدين إلى شيء من الحق والصواب
من طريق العقل ولا من طريق الشرع، ولا

لقلوبه تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى
بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ
أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ
جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ
ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ
لَمُسْرِفُونَ ﴿٢٢﴾ [المائدة: ٣٢].

ولم يأت القرآن بوعيد أشد من الوعيد
الذي أُنذر به قاتل النفس المؤمنة، فقال
تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا
فَجَزَاءُؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ
عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَآعَدَ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣].

ولقد جاءت السنة النبوية بأحاديث
عديدة، ترفع من شأن النفس البشرية، وفيها
من الكشف عن فظاعة العدوان على الدماء
البريئة ما يربح المشاعر، ويقرع القلوب
قرعًا، حتى اعتبرت أن الدنيا كلها أهون عند
الله من قتل نفس إنسانية، تقتل بغيًا بغير
حق، عن عبدالله بن عمرو أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال: (لزوال الدنيا أهون عند
الله من قتل رجل مسلم بغير حق) ^(١).

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الديات،
باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، رقم
١٣٩٥.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم
٥٠٧٧.

من منافع الدنيا، ولا من سعادة الآخرة^(١). وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة في الآية أعلاه قال: «نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعه، كان الرجل يشترط على امرأته أنك تتدين جارية (أي: بنتاً)، وتستحيين (أي: تبقين) أخرى، فإذا كانت الجارية التي تؤاد غدا من عند أهله أو راح وقال: أنت عليّ كأمي (أي: محرمة) إن رجعت إليك ولم تتديها، فترسل إلى نسوتها فيحفرن لها حفرة فيتداولنها بينهما، فإذا بصرن به مقبلاً دسسنها في حفرتها، وسوين عليها التراب (أي: وهي حية)، وهذا هو الواد^(٢)».

وقيل: هؤلاء الذين صنعوا هذه الأفاعيل قد خسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فخسروا أنفسهم وأولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وخسروا عقولهم، وأزواجهم، وخسروا الكرامة التي جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره، وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد، أما في الآخرة، فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافتراءهم^(٣).

ومعلوم عن المؤمن أنه يسمع ويطيع أوامر الله جميعاً بدون جدال ولا تهاون؛ لأنه أحرص ما يكون على مضاعفة حسناته وتكثيرها؛ لأنها السبيل إلى دخول الجنة والنجاة من النار، أما غيره فهو متهاون في الاستجابة لأوامر الله، وبالتالي تخف موازين حسناته، وذلك مدعاة إلى أن يخسر آخرته، ويؤبى بسخط الله وعذابه، وذلك هو الخسران الممين؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقد بين الله في كتابه العزيز الخسران الممين لمن لا يستجيب لأوامره في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَقَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: والفساد في الأرض ألوان شتى، تنبع كلها من الفسوق عن كلمة الله، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل.

ورأس الفساد في الأرض هو الابتعاد عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها، وإن الهدم والشر والفساد حصيلة الفسوق عن طريق الله، ومن ثم يستحق أهله أن يضلهم الله بما يهدي به عباده

(١) تفسير المنار ٨/ ١٣٠-١٣١ بتصرف.

(٢) انظر: الدرر المشور، السيوطي ٣/ ٣٦٦.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٨/ ١٢٢٢،

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٤٣.

المؤمنين^(١).

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾: أي: الهالكون، بحرمان الله إياهم من رحمته لكفرهم ومعصيتهم إياه وارتكاب ما نهى عنه^(٢).

ذكر الرازي في كتابه: «أن معنى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ أي: في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخصيس الفاني، وقيل: هم الخاسرون في إنكار ما قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوحيد والبعث^(٣)».

٢. الإلتناء بالأموال والأولاد عن ذكر الله.

وأما بالنسبة للأولاد، فالله يمنح الإنسان أولاداً ليكونوا له زينة في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

قال ابن تيمية: «وما كان ملهياً وشاغلاً عما أمر الله تعالى به من ذكره والصلاة له فهو منهى عنه، وإن لم يكن جنسه محرماً: كالبيع، والعمل في التجارة، وغير ذلك^(٤)».

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم

يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفاً أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية، وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله، وذكر الأموال والأولاد في الآية؛ لأنها أرغب الأشياء، وإن ألهته عن ذكر الله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ أي: خسروا آخرتهم وفضلوا دنياهم عليها، فضلوا الدنيا، وهي العاجلة الفانية على الآخرة، وهي الآجلة الباقية، خسروا كل شيء، مهما يملك من أموال ومن أولاد^(٥).

وقال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّمَّ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّا يَزِدُّهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

إذا لا فائدة من كثرة الأموال والأولاد؛ لأنها لن تغني الإنسان من الله شيئاً ومن عذابه وخسرانه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَّ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٧].

الأصل في المؤمن أنه وقاف عند حدود الله، فلا يحل إلا ما أحل الله، ولا يحرم إلا ما حرم الله، لكن إن تنكب الطريق، وسار

(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣٥٨٠/٢٨، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٢٣٨/٢٨.

(١) انظر: جامع البيان، ٢٢٢/١، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥٢/١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢٢/١.

(٣) مفاتيح الغيب، ١٨/٣٠.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣٥/٣٢.

في درب معوج، فوقع في محارم الله، وتنكر لما شرع الله افتراءً على الله، فهؤلاء قد باءوا بسخط من الله؛ لأنهم ضلّوا الطريق إلى الله، فيخسروا أعمالهم في الدنيا والآخرة خسارة تقودهم إلى جهنم وبئس المصير.

٣. الصد عن سبيل الله.

وهذه مشكلة واقعية قديماً وحديثاً، وإن أعداء هذا الدين، يترصدون الدوائر بالإسلام والمسلمين، ويطردون المسلمين في كل مكان؛ ليصدوهم ويفتنوهم عن دين الله، فبدأ هذا الصراع منذ بدء الخليقة، ومع كل الأنبياء، واستمر عبر العصور والأجيال حتى يومنا هذا، فهذه إذن طبيعة الدعوات وطريق النبوات^(١).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتُونَهَا عَوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنْتُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ٢٢﴾

[هود: ١٩-٢٢].

يوضح الله سبحانه وتعالى في هذه

الآية جناية هؤلاء الذين استوجبوا بها النار فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الدين الإسلامي، ويغنون أن تصير سبيل الله عوجاء، كما يهودون ويشتهدون، فهم يريدون من الإسلام أن يبيح لهم المحرمات من الربا، والزنا، والسفور، ويريدون من الإسلام أن يأذن لهم في عبادة القبور، والأشجار، والأحجار إلى غير ذلك، ويضاف إلى هذا ذنب أعظم وهو كفرهم بالدار الآخرة، منكبين للبعث والنشور، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال^(٢).

ثم بعد ذلك يبين الله حال هؤلاء المشركين في الآخرة؛ بأنهم استقروا في دار الشقاء، فخسروا كل شيء حتى أنفسهم بدخولها نار جهنم -والعياذ بالله- وخسروا سعادة الدنيا والآخرة، باشتراء الضلالة بالهدى، وبأله من خسران مبین! وشقاء واضح!، وضاع وغاب عنهم ما كانوا يزعمون أن لهم شركاء، وأنهم يشفعون لهم وينصرونهم.

ثم يؤكد الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنْتُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾ أنهم الأكثر خسراناً من غيرهم؛ لأنهم أضافوا إلى جريمة كفرهم،

(١) انظر: الصد عن سبيل الله في ضوء القرآن الكريم، عبد السلام اللوح، وذكريا الزميل، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ص ٣٣.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٥٣٢/٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٤/١٢.

الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ [ص: ٧٣-٨٣].

إذن هي عداوة قديمة ومتأصلة، وقد نهى الله عن اتباعه والسير على منهجه الكفري الضال، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

وقد بين الله لنا سبب هذا النهي، لكونه يأمر بالفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

ومع هذا التحذير والنذير إلا أن بعض الناس لا يطيب له إلا أن يتبع كل شيطان مريد، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلُهُ فَاِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣-٤].

جريمة تكفير غيرهم ممن كانوا يدعونهم إلى الضلال، ويصدونهم عن الإسلام سبيل الهدى والنجاة من النار، وبهذا كانوا أخسرين، أي: شديدي الخسارة؛ لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما اقترفته الأمم الضالة، ولأنهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وبهذا اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة^(١).

٤. طاعة الشيطان.

وإن اتباع الشيطان وطاعته من أشد الأمور عداوة لله؛ ذلك أن الشيطان هو عدو الله في الأرض الذي رفض أمر الله بالسجود لآدم يوم خلقه الله، فطرده الله من رحمته ولعنه إلى يوم الدين، وقد أخذ الشيطان على عاتقه، وأقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم إلا المخلصين منهم.

قال تعالى وصفاً لما حدث: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٢-٣٤].

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٥٣٤/٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٨/١٢، المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ٥١٨/٢.

فكل من يقع في هذا النهي الإلهي، ويتبع خطوات الشيطان فإنه خاسر لا محالة؛ لأنه عصى الله بذلك، وأطاع عدوه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

يعني: من يواليه ويتبع وسوسته، ويطعه، ويترك أمر الله، وقيل: بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به، ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته، فقد خسر خسرانًا مبینًا ظاهرًا في معاشه ومعاده، إذ يكون أسير الأهوام، والخرافات يتخبط في عمله على غير هدى، فيفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل، وسائر القوى والموهب، وقيل: بدّل مكانه من الجنة بمكان من النار^(١).

وقوله تعالى أيضًا: ﴿اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلِيَّكُمْ فِرْطَةُ الشَّيْطَانِ﴾ [آلِ أَنْزِلَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ] [المجادلة: ١٩].

فكذلك يصنع الشيطان بمن استحوذ عليه، فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من ثلاثة في قرية، ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنه يأكل الذئب من الغنم القاصية)^(٢).

(١) انظر: تفسير المناء، محمد رشيد رضا، ٤٣٠/٥.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الإمامة، باب

٥. طاعة الكافرين.

حذّر الله من طاعة المؤمن للكافرين وموالاتهم؛ لأنها تجعله في معصية لله، وقد نهى عن ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فإن والى المؤمن الكافر ظنًا أنه يتغي عنه العزة فهو واهم؛ لأن العزة لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوهُ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقد نهى الله عن موالة الكافرين وطاعتهم؛ لأنهم يصدون المؤمنين عن دين الله، ويخرجونهم من ديارهم، ويظاهرون على إخراجهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

حقًا إنه من يوالي الكافرين، فإنه قد ضل عن سواء السبيل، وسيخسر عمله في الدنيا

التشديد في ترك الجماعة، رقم ٨٤٧. وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ١٠٦٧.

﴿١٣﴾ [المستحقة: ١٣].

والمعنى في هذا، هو التحذير من مسaire الكافرين بأي نوع من أنواع المسaire؛ إذ كل مسaire طاعة، ولا يليق بالمؤمن أن يطيع كافراً؛ لأنه يجب أن يكون في حذر دائم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نتيجة طاعة الكافرين في أي عصر من العصور إن كان هناك احتمال لذلك، فذكر في جواب الشرط نتيجتين، كلتاهما مترتبة على الأخرى، أولاهما: أشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ آفَاقِكُمْ﴾، والثانية المترتبة عليها: أشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

فالتبعية الأولى: ردهم على أعقابهم، فمعناها: أن يرجعوا إلى موضع الذلة الذي كانوا فيه قبل أن يؤذن لهم بالجهاد، أو يرجعوا إلى ما كانوا عليه في غير انتظام وفي اضطراب.

والنتيجة الثانية: هي الانقلاب خاسرين، والتعبير بالانقلاب: يفيد أن طاعة الكافرين حتماً فيها تغيير حال أصل الإيمان، فجعل أعلى ما فيهم أسفل، وأن هذا الانقلاب تلاسه لا محالة الخسارة المؤكدة التي لا احتمال فيها؛ إذ يخسر المؤمنون إيمانهم، ويخسرون من وراء ذلك الآخرة، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ

والآخرة، وذلك هو الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ آفَاقِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

يحذر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية المؤمنين أن يطيعوا الذين كفروا، يعني: مشركي العرب، أبا سفيان وأصحابه، وقيل: اليهود والنصارى، وقال علي رضي الله عنه: يعني: المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دين آبائكم^(١).

«الطاعة: تطلق على امثال أمر الأمر، وعلى الدخول تحت حكم الغالب، فيقال: طاعت قبيلة كذا، وطوع الجيش بلاد كذا»^(٢).

فالكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان، ولا يكونان في قلب رجل واحد، ولذلك الآية الكريمة تحذر المؤمنين تحذيراً عاماً بالآطاع الكافرين، ولا يستنصروا بهم، ولا يجعلوا لهم ولاية عليهم؛ لأن ولايتهم غير ولاية الله، وولاية الله هي الولاية الحق، وهم موضع غضب الله تعالى دائماً، والذي يتولاهم ويستنصر بهم، فإنه يتولى قوماً غضب الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٩/٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢١/٤.

أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ [الحج: ١١] ^(١)، وقوله أيضًا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ [المائدة: ٥٣].

٦. الكفر بالأنبياء والرسل.

إن الإيمان بالأنبياء فهو ركن من أركان الإيمان، فإن اختل هذا الركن اختل إيمان الإنسان؛ وذلك لأن الأنبياء هم رحمة الله إلى عباده؛ ليقودوهم إلى رضوان الله والجنة، والنجاة من سخطه والنار، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

هذا حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، أما غيرهم فقد يكفر ويكيد بأنبياء الله والصالحين، فيقع في الكفر والخسران.

رابعًا: ترك الواجبات:

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالقيام بكل الواجبات المفروضة علينا من عمل الصالحات والإكثار من فعلها بكل حكمة ووراعة؛ لأنه بهذا الأمر نستطيع أن نجنب

أنفسنا الخسران المبين، والهلاك والدمار، ومن لم يستجب ينال ما يستحق وسنورد بعضًا من ذلك:

فالخسران المبين لمن يتخذ الصلاة هزواً ولعباً دون خشوع وتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [المائدة: ٥٨].

فالويل والهلاك للذين لا يطيعون الله في أوامره ويتهاونون في تطبيق واجباته؛ لقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿٥﴾ [الماعون: ٤-٥].

فتكون نتيجة الضلال والهلاك يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١﴾ [المنافقون: ٩].

تضمنت هذه الآية تحذيرًا للمؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين بانشغالهم بالأموال عن ذكر الله والصلوات والطاعات وجميع الفرائض، وقد اختلف المفسرون فيمن نزلت، فمنهم من قال: نزلت في حق المنافقين، ومنهم من قال: نزلت في حق المؤمنين ^(٢).

والراجح أنها نزلت في حق المؤمنين

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/٣٠، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٩/٢٣٧.

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ١٤٤٤/٣.

تحلى بصفة من صفات المنافقين الخارجين عن حدود الله، ولا بد من توضيحها؛ حتى نحذر من ارتكابها لتجنب الخسارة في الدنيا والآخرة، فكيف سيكون حال مجتمع لا يفي فيه الناس بعهودهم فيما بينهم، فإنه ستندم ثقة بعضهم ببعض، فقد أمر الله سبحانه وتعالى في كثير من آياته، وكذلك نبيه صلى الله عليه وسلم بالوفاء بالعهود.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [النحل: ٩١].

وعد النبي صلى الله عليه وسلم الخلف بالوعد من علامات النفاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أُوْتِمِن خان)^(١).

وقوله تعالى أيضًا: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

تحذّرهم، وخاصة أن الآية ابتدأت بالخطاب الموجه لهم، وأيضًا الآيات السابقة كانت تتحدث عن قبائح وأعمال المنافقين، فكان حريًا أن يتم تحذير المؤمنين من التشبه بالمنافقين.

وقد حكم الله بكفر من لا يستجيب لأمره بدفع الزكاة، وبالتالي سينال جهنم، ويكون من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧].

والصبر فضيلة من الفضائل، وخلق من الأخلاق التي عني بها القرآن الكريم، فالهلاك لمن يترك الصبر ولا يتحمل ما أصابه الله به؛ لأنه سيؤدي به إلى أن يسخط على الله، ويخرج من دائرة الإيمان، ويصل به إلى اليأس والقنوط من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَسَّ الشَّرُّ فَيَنْقُصْ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩].

وهذا لا يكون إلا من الضالين كما وصفهم الله في كتابه.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ويجب ألا نكون منهم لتركنا واجبًا مفروضًا علينا التمسك به، وبالتالي ننال الخسران في الدنيا والآخرة.

والتمسك بميثاق الله أيضًا من الواجبات المفروضة علينا، فمن نقض عهد الله وميثاقه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٢١١.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: أي: الهالكون، بحرمان الله إياهم من رحمته لكفرهم ومعصيتهم إياه وارتكاب ما نهى عنه^(٣).

وقيل: «أي: خسروا سعادتهم في الآخرة؛ حيث عرّضوا أنفسهم لعذاب جهنم المؤبد، ولا خسارة أعظم ممن خسر دينه وأخرته، وقصر الخسران عليهم في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ لأنهم بإهمالهم للعقل، خسروا الحياة الأبدية»^(٤).

خامساً: عدم مغفرة الله ورحمته للعبد:

معروف أن الإنسان المؤمن الصالح بطبيعته حريص على أداء الطاعات والعبادات، وفعل ما أمر الله به والابتعاد عما نهى عنه؛ لأن غايته من وراء ذلك كله الحرص على كسب رضوان الله سبحانه وتعالى والحصول على مغفرته ورحمته يوم القيامة، والفوز بجنته، وإن نسي أو أخطأ وغفل الإنسان، وهذا ليس عيباً فيه؛ لأنه ضعيف يدخل إليه الشيطان، فيدرك خطأه، ويعرف زلته، نجده يسارع في التندم وطلب العون من ربه والمغفرة، وبالتالي إنه يثوب ويتوب، على عكس الإنسان الذي ينغمس في ملذات الدنيا وشهواتها، ويحرص كل

فسؤال يطرح نفسه، فأي عهد من عهود الله ينقضون؟ وأي أمر مما أمر الله به أن يوصل هو الذي يقطعون؟ وأي لون من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون؟

وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة: إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي، أن يعرف خالقه، وأن يتجه إليه بالعبادة، وما تزال هذه الفطرة مركوزة في الاعتقاد بالله، ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون الله أنداداً وشركاء، وعهد الاستخلاف الذي أخذه الله على آدم، وعهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده، وأن يحكموا في حياتهم منهجه وشريعته، وهذه العهود كلها هي التي ينقضها الفاسدون^(١).

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: يقول الطبري: «مقصود به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب - وإن كان لمن وصفت من الفريقين - فداخل في أحكامهم، وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ، كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي»^(٢).

(٣) انظر: المصدر السابق ٢٢٢/١.

(٤) المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ٦٠/١.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥١/١.

(٢) جامع البيان، ٢٤٢/١.

سادساً: الدعوة إلى الباطل وترك الحق:

الدعوة إلى الباطل الذي هو نقيض الحق سبب في خسران الإنسان، فإن الباطل هو الطاغوت سواء أكان ذلك شيطاناً أم صنماً، أم معتقداً، أم معبوداً غير الله، وهو نقيض الإيمان بالله تعالى، وإن اعتقاد الباطل والعمل به يخرج الإنسان عن دينه وإيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِغَيْبِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

فالتبعية التي ينالها هؤلاء هي الخسران المبين.

سابعاً: خفة الموازين:

خفة موازين الإنسان يوم القيامة نتيجة عدم الإكثار من الطاعات، والعبادات، وكسب الحسنات، مما يؤدي إلى أن تكون سيئاتهم أكثر من حسناتهم، وبالتالي تكون خفة موازينه يوم القيامة، ونيل الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

يقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية: من خفت موازين أعماله الصالحة، فلم تثقل بإقراره بتوحيد الله والإيمان به، وبرسوله، فأولئك الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من

الحرص على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها، وبهذا يغفل عن أداء العبادات والطاعات، ولا يحرص على تجنب المحرمات، فتكون نتيجته أنه خسر وضاع، وذلك بفقدان أعظم شيء، ألا وهو مغفرة الله ورحمته، وفقدان الفوز بجنته ورضوانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فهذه الآية الكريمة تدل على ندم آدم وحواء على فعلتهما، فسارعا إلى التوبة والستر والغفران، على عكس مطلب إبليس طلب الإنظار ولم يطلب التوبة، وهذه خصيصة «الإنسان» التي تصله بربه، وتفتح له الأبواب إليه، الاعتراف، والندم، والاستغفار، والشعور بالضعف، والاستعانة به، وطلب رحمته، مع اليقين بأنه لا حول ولا قوة إلا بعون الله ورحمته وإلا كان من الخاسرين^(١).

فهذه طبيعة الإنسان المؤمن فإنه إذا أخطأ أو غفل يسارع إلى طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى.

ولكن هناك الكثير من الأمور يتساهل الناس في فعلها تكون سبباً في فقدانهم لمغفرة الله ورحمته، إذا لابد من الحرص والحذر.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٢٧٠/٨.

جزيل ثواب الله وكرامته؛ بسبب كونهم بحجج الله وأدلتهم يجحدون، فلا يقرّون بصحتها ولا يوقنون بحقيقتها^(١).

ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم، وتضيع فطرة الإسلام التي ما من مولود إلا يولد عليها، أو فطرة الخير الذي هو أصل الجبل، والمراد بالخسران: كونه في الهاوية من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾^(١٣) تلفح وجوههم النار وهم فيها كالخسوف^(١٤) [المؤمنون: ١٠٣-١٠٤]^(٢).

ثامناً: الأمن من مكر الله:

إن المؤمن يتفطن دائماً لمقام قدرته سبحانه وتعالى، فإذا عصى يتوقع عذاب الله تعالى بسبب عصيانه، ويتخوف ولا يأمن أن تنزل به العقوبة، ولفرط حسه بمعصيته، وإيمانه بالله يخاف دائماً عذابه، ولا يرجو أن يمهله الله وقد عصاه، على عكس الكافر تماماً، فإنه يعصي، ويرى عصيانه حسناً، وينسى قوة الله، وأنه يعاند ويحارب أمره ونهيّه، ناسياً أنه يعاند القوي القهار القادر الذي هو غالب على كل شيء، وأنه لا إرادة لمخلوق بجوار إرادته سبحانه وتعالى وعلى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤٥/٥.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٢٦/٥، أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/٢٦١.

ذلك يأمن عذاب الله ومكره.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٥) [النحل: ٤٥].

فيلاقي العذاب الشديد، وما لا يحسب عقابه.

قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٦) [النمل: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾^(١٧) [الأنعام: ١٢٤].

وقوله أيضاً: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١٨) [الأعراف: ٩٩].

يوتخ الله الذين يكذبون رسله، ويجحدون مكره؛ لأنهم غفلوا عن الحق، ونسوا تدبير الله تعالى المهلك لهم جزاء بما كسبوا، وبما كذبوا بآيات الله، والفاء: في قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ﴾ جاءت عاطفة يترتب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنهم إذا كانوا لم تجدهم النعمة ولا النعمة، وبأس الله يأتيهم في مآمنهم ليلاً وهم نائمون، وضحى وهم يعملون، ومع ذلك لا جدوى فيه، فهو لعب، أو كاللعب، فهم لا يأمنون المكر الإلهي.

حكم الله تعالى بخسارتهم، مؤكداً الخسارة بالقصر، وأن الخسارة مقصورة عليهم، وخسارتهم في أنهم خسروا أنفسهم، فليسوا في حال عقلية مدركة، وخسروا أنفسهم بالاستمرار على غيهم، وخسروا بالعذاب الأليم الذي ينزل، والله سبحانه هو الذي يقي المؤمنين شر الغفلة والنسيان، وأمن عذاب الله، وجعلهم في فطنة دائمة، واعتبار بأمر الله ونهيه، وهو الهادي إلى سواء السبيل^(٣).

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي والتوبيخ، فهم لا يأمنون مكر الله، ومكر الله تعالى تدبيره المحكم الذي ينزل به العذاب السريع على من يستحقه، والأمن والطمأنينة لمن يستحقه، وهو الحكم، وقد فسر بعض المفسرين بأنه العذاب أو البأس الشديد^(١).
«والمكر قسمان:

١. مكر سيء: وهو الذي يكون من الأشرار، ونتيجته شر.
٢. ومكر طيب: وهو رد مكر الأشرار، ونتيجته طيبة.

ولقد قال في شأن قريش في تدبيرهم للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتيهه أو يقتلوه أو يخرجوه ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] أي: أنهم كانوا يدبرون لإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ويمكرون المكر السيئ الذي لا يحق إلا بأهله، والله تعالى يدبر لنبيه نجاته منهم، وهجرته من أرضهم من غير إخراج، حتى يكون الفصل بينه وبينهم^(٢).

والكافر يعمل المعصية، ويعتقد أنه آمن، وما يغفل عن مكر الله إلا الذين هلكوا بذنوبهم؛ ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي:

(٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٢٩١١/٦، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ١٠/٩.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٧٥/٣، فتح القدير، الشوكاني، ٢٦١/٢.
(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٢٩١٠/٦.

نماذج من الخاسرين في القرآن

من رحمة الله بعباده أنه ذكر في كتابه العزيز الكثير من الأساليب والوسائل، ومنها على سبيل المثال ضرب الأمثال، وسرد القصص، وذكر الأخبار، وذلك لحكمة يريد بها الله؛ ليعتبر أولو الألباب، ويتخذوها قدوة لهم في الحياة، وإظهار مدى قدرة الله وعظمته، وإعجاز قرآنه وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّقَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

فإذا جاء الوقت وحن موعد العذاب، ينزله الله على الكافرين لإهلاكهم، وينجي الله رسله، والذين آمنوا معهم، ويهلك الذين افترؤا وكذبوا وجحدوا آياته عز وجل وخسر في ذلك العذاب المتمسكون بالباطل على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولاً أولياً، لكونهم يجادلون في آيات الله سبحانه وتعالى (١).

وسنورد إن شاء الله نماذج من الخاسرين في القرآن في السطور الآتية:

أولاً: قابيل ابن آدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٠).

هذه الآية تتحدث عن ابني آدم قابيل وهابيل؛ حيث إن هابيل كان أول من قتل في الأرض.

وقال الماوردي في كتابه: «إن (طوَّعت) فيها ثلاثة تأويلات، وهي: أحدها: يعني: شجعت، وهو قول مجاهد.

والثاني: يعني: زينت، وهو قول قتادة.

والثالث: يعني: ساعدته» (٢).

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي: زينت له وسهلت عليه القتل، والإنسان إذا تصور أن قتل النفس من أكبر الكبائر صار ذلك صارفاً له عن القتل فلا يقدم عليه، فإذا سهلت عليه نفسه هذا الفعل فعله بغير كلفة.

وقرئ ﴿فَطَاوَعَتْ﴾ على أنه فاعل بمعنى فعل، أو على أن قتل أخيه كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع.

وروي أنه جهل كيف يقتله، فجاء إبليس بطائر -أو حيوان غيره- فجعل يشدخ رأسه بين حجرين؛ ليقتردي به قابيل ففعل، وقال ابن عباس وابن مسعود: وجده نائماً فشدخ رأسه بحجر، وكان ذلك في ثور «جبل

(٢) النكت والعيون، ٣٠/٢، بتصرف.

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٣/١٣٥، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٢٤/١٤٧.

تفصيلاته، وليس لنا عليها من دليل. المهم أن الله قد أنجى إبراهيم من الكيد الذي أريد به، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة، والكيد هنا: أي مكر عظيم في الإضرار به، وقيل: هو الإضرار الشديد الذي يكون نتيجة الكيد والتدبير الخبيث، فأطلقوا السبب وأراد المسبب وهو الضرر، وكيدهم كان في مغالبتهم له ومجادلتهم، فكانوا هم الخاسرين في هذه المغالبة في الدنيا والآخرة، أي: أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل، وموجباً لارتفاع درجته، واستحقاقهم لأشد العذاب، والأخسرون جمع أخسر، والمراد: من بلغوا أقصى درجات الخسران^(٣).

وقيل: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: في أعمالهم، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا، قال ابن عباس: سلط الله عليهم أضعف خلقه البعوض، فما برح نمروود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في منخره فلم تزل تأكل

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٣٨٨/١٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦٨٢/٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٦٩، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٤٨٩٢/٩.

بمكة». وقيل: عند عقبة حراء، ويقال: إن قابيل كان يعرف القتل بطبعه؛ لأن الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها، فأخذ حجراً فقتله، ولما قتله ندم فقعده يبيكي عند رأسه، إذ أقبل غرابان فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم حفر له حفرة فدفنه، ففعل القاتل بأخيه كذلك^(١).

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: ممن خسر حسناته، وقال مجاهد: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه إلى الشمس حيثما دارت، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

قال ابن عطية: «فإن صح هذا فهو من خسارته الذي تضمنته قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإلا فالخسران يعم خسران الدنيا والآخرة»^(٢).

ثانياً: قوم إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

قد روي أن الملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب «بالنمرود» وهو ملك الآراميين بالعراق، وأنه قد أهلك هو والملا من قومه بعذاب من عند الله، تختلف الروايات في

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣١٧/٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤٦١/٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨٠/٤.

إلى أن وصلت دماغه وكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه بمرزبة من حديد، فأقام بهذا نحوًا من أربعمئة سنة^(١).

ثالثًا: قوم شعيب عليه السلام:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ [الأعراف: ٩٢].

هذه الآية جملة مبنية لما حل بقوم النبي شعيب عليه السلام من النعمة:

فيخبر الله تعالى عن شدة قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

فلهذا أعقبه بقوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا﴾ [الأعراف: ٩١].

والمناسبة في ذلك: أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة

فأسكتتهم، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد، فأصبحوا في دارهم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥٢٤/٦.

جائمين^(٢).

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ والغنى: المنزل، والجمع المغاني، وهي المنازل التي بها أهلها، يقال: غنيت بالمكان إذا أقمت به، وغني القوم في دارهم، أي: طال مقامهم فيها، وقال ابن عباس وقتادة في معناها: كان لم يعيشوا فيها، وقال ابن عباس: كان لم يعمرها فيها.

ومعنى الآية: كأن لم يقيموا في دارهم أصلًا ولم ينزلوها يومًا من الدهر، فإن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب، وقيل: المعنى كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين، يقال: غني الرجل إذا استغنى، وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر، والأول أولى^(٣).

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾

(٢) هذه الجملة متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين، وهل هناك خسران أشد من أن يخسر الإنسان نفسه، بعذاب في الدنيا والآخرة؟ وإعادة الموصول والصلة كما هي، لزيادة التقرير والإيذان بأن ما ذكر في حيز الصلة هو الذي استوجب العقوبتين^(٤).

فكل من عادى نبيًا فهو خاسر في عاجل أمره وآجله؛ لأنه قد عادى الله الذي أرسل أنبياءه لخلقه.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٠٢/١.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ٥٠٤/٣، فتح البيان، القنوجي ٤١٣/٤.

(٤) انظر: في رحاب التفسير، كشك، ٣٦٣/٩.

وسلم: (لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة)^(٢).
وليتجنب أيضًا المؤمن الخسارة عليه
بطاعة الله ورسله، إذ الإيمان بالأنبياء ركن
من أركان الإيمان، فإن اختل هذا الركن
اختل إيمان الإنسان؛ وذلك لأن الأنبياء هم
رحمة الله إلى عباده؛ ليقودوهم إلى رضوان
الله والجنة، والنجاة من سخطه والنار.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ
وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ ۝﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فهذا حال المؤمنين الصادقين في
إيمانهم، والله حصر الإيمان فيمن التزم
الدين كله باطنًا وظاهرًا في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ
إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝﴾
[الأنفال: ٢-٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ
إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ تَتَجَافَىٰ
جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝﴾ [١٦] فَلَا تَعْلَمُ

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير
القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم ٣٠٩٢.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وسائل النجاة من الخسران

بعد الانتهاء من بيان أسباب الخسران
بالشرح والتوضيح والبيان، والإشارة إلى
نماذج من الخاسرين في القرآن الكريم،
كان لابد من وقفة على وسائل النجاة من
الخسران التي هي بمثابة الذراع الحامي،
والواقى للإنسان من الوقوع في الخسران،
وهذه الوسائل هي التي تصل بالإنسان إلى
الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وستتناول هذه الوسائل بالشرح والبيان؛
ليتضح للإنسان مدى أهميتها، ويتخذها
وقاية له من الوقوع في الخسران، ولذلك
كان المثل المشهور: «درهم وقاية خير من
قنطار علاج»^(١).

أولاً: الإيمان والعمل الصالح:

أول وسيلة من وسائل النجاة من
الخسران يدور حول تحقيق الإيمان والعمل
والصالح، وهذا العنوان يعتبر من أخطر
العناوين شأنًا، وأعظمها قدرًا؛ لأنه أصل
الأصول في النظام العام لحياة المسلم
بكمالها، فالإيمان هو الذي أمرنا الله أن
نلتزم به، ونحققه في حياتنا؛ لأنه السبيل إلى
فلاحنا يوم القيامة، ونجاتنا من نار جهنم
-والعياذ بالله- لقول النبي صلى الله عليه

(١) قالوا في المثل، موسوعة في الأمثال والحكم
السائرة نثرًا وشعرًا، عيسى عطا الله، ١/ ١٥٥.

نَفْسٌ مَّا أَخْفَىٰ لَهُمْ مِّن قُرْءَانٍ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

والإيمان الكامل هو الإيمان الشامل لكل من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، والقضاء خيره وشره، والإيمان بالغيب، والبعث، والحساب، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن وفد عبد القيس... أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: (أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس) (١).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّالِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْسَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالإيمان فرائض وشرائع، فمن استكملها

استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان (٢).

ومن تحقق الإيمان في قلبه حقاً فقد نال أجره كاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ [البقرة: ٦٢].

وفاز فوزاً عظيماً، وكان من المفلحين، ونال ما وعده الله سبحانه به يوم القيامة من نيل رضوان الله ورحمته ودخول جنته، قال تعالى: ﴿لَيَدْخُلَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَغَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ [الفتح: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ [البقرة: ٢٥].

ومن الأعمال الصالحة التي لا بد أن يقوم بها الإنسان، التزام الأخلاق والسلوكيات الصالحة، والأخلاق قسمان: أخلاق كريمة، وأخلاق ذميمة.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، رقم ٥٣.

(٢) انظر: معارج القبول، حافظ حكيم ٢/ ٥٩٧.

الفاضلة، من الإنفاق في حال اليسر والعسر، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُتَّامِينَ الْفَتَى وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَن تُولُوا وَبُيُوهَكُمْ يَكِلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ إِلَهَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْكَتَبُ وَالنَّبِيُّنَ وَمَا آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنُ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكذلك رغب النبي صلى الله عليه وسلم باتباع الأخلاق الحميدة، وحذر من كل خلق ذميم، فالخير الحقيقي في ميزان الرسول هو الخلق الحسن، فعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه

تزكية النفوس وتطهيرها؛ حتى تكون كريمة الأخلاق، نبيلة السجايا، فلم تدع خلقاً كريماً إلا رغبته فيه، كالصدق، والوفاء بالعهد، والجود، والصبر، والتقوى إلى غيرها من الأخلاق الكريمة، ولم تدع خلقاً ذمياً إلا حذرت منه، كالكذب والبخل والتجسس والنميمة إلى غيرها من الأخلاق الذميمة، بل إن جميع الأحكام الشرعية تدور مع الأخلاق حيث دارت، فلا ترى حكماً شرعياً يعارض الأخلاق ويصادمها، وحسبك أن الله أثنى على عبده ورسوله محمد بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾ [الفلم: ٤].

فالنبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، فهو الأسوة والقدوة لنا جميعاً حيث بلغ بأخلاقه الكريمة منازل عالية. والأخلاق الكريمة تدعو إليها الفطرة السليمة، فالبشر كانوا ولا يزالون يعدون الصدق والوفاء بالعهد والجود والشجاعة والصبر أخلاقاً فاضلة، يستحق صاحبها الثناء والتكريم، ولا يزالون يعدون الكذب والغدر والجبن أخلاقاً سيئة، ترفضها العقول السليمة وتذم صاحبها، والشرعية جاءت داعية إلى المعروف من الأخلاق، والسلوكيات الصالحة، وتنهى عن المنكر منها، فدعا الحق عباده إلى المبادرة إلى رحمته وجنته التي أعدها للمتقين من عباده، وأول صفاتهم تحليهم بالأخلاق

الناس^(١).

والخلق سبيل الارتقاء إلى مدارج الكمال، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من خيركم أحسنكم خلقًا)^(٢)، وأيضًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، والطفهم بأهله)^(٣).

وأحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقربهم منه مجلسًا يوم القيامة أحسن المؤمنين خلقًا، فعن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله؟ قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون)^(٤).

- (١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تفسير البر والإثم، رقم ٦٥١٦.
 - (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي فاحشًا ولا متفحشًا، رقم ٦٠٢٩.
 - (٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان، رقم ٢٦١٢.
 - (٤) قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في معاني الأخلاق، رقم ٢٠١٨.
- قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

والمؤمن هو من يلتزم بأوامر الله سبحانه وتعالى ويتحلى بالأخلاق الحميدة، ويتعد عن نواهيه، ويتجنب الأخلاق الذميمة^(٥).
فإن صار على ذلك فقد فاز وأفلح يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بذلك في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٦)
[المؤمنون: ١].

وقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوْقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَيُّ وَالْحَيُّ وَلَيْسَ الْبَرْيَانُ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبَرْيَانَ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٧) [البقرة: ١٨٩].

ومن الآيات التي بينت الفوز والفلاح والثواب الذي يناله من يلتزم بالأخلاق الفاضلة، وفي ذلك وقاية له من الخسارة في الدنيا والآخرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ

أَلْفَوْزٌ عَظِيمٌ﴾^(٨) [المائدة: ١١٩].
تبين هذه الآية الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين، الذين التزموا بهذا الخلق الحميد، فيقول الله تعالى يوم القيامة عقب جواب عيسى عليه السلام مشيرًا إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين

- (٥) وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ١٦٤٢.
- (٦) انظر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة، عمر الأشقر، ص ٢٥٠.

[الزمر: ٥٣].

وكيلا يزداد العاصي انحرافاً وطغياناً، فقد جعل له طريق الرجوع إلى الصواب، وهي مبدأ طريق السالكين، ومفتاح سعادة المريرين.

قال تعالى: ﴿وَسَعَلُونَكَ عَنِ الْمَجِيزِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا الْيَسَاءَ فِي الْمَجِيزِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال أيضاً: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك، يا ابن آدم: إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة) (٢).

قال الحسن البصري: التوبة النصوح:

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، رقم ٣٥٤٠.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٣٥٤٠.

هو في زمرتهم، ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، ومعنى نفع الصدق صاحبه في ذلك اليوم، أن ذلك اليوم هو يوم الحق، فالصادق ينتفع فيه بصدقه؛ لأن الصدق خلق حسن، فلا يكون له في الآخرة إلا الأثر الحسن.

والصادقون: الرسل الناطقون بالصدق الداعون إلى ذلك، والأمم المصدقون لهم، المعقدون بهم قولاً وعملاً، لهم نعيم دائم، وثواب خالد، وهو الفوز الكبير، رضي الله عنهم بالطاعة، ورضوا عنه بنيل الكرامة والرضوان، وهو فيض زائد على الجنات لا غاية وراءه، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نيل الرضوان ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة الوافرة، وحقيقة الفوز نيل المراد، وقد عظم الفوز لعظم شأن المطلوب، الذي تعلق به الفوز، وهو الرضى الذي لا مطلب وراءه أصلاً (١).

ثانياً: التوبة من المعاصي:

من رحمة الله تعالى بعباده، أن شرع التوبة للعاصي؛ لئلا ييأس من رحمة الله بمجرد المعصية.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٥١].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١٨/٧.

أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين والمؤمنات بالتوبة، وهي ترك ما من شأنه أن يغضب الله تعالى، وفعل ما وجب فعله، ومن ذلك غض البصر، وحفظ الفرج، والالتزام بالعفة، والستر، والتتره عن الإثم صغيره وكبيره، فأعلنوا توبتكم، وارجعوا إلى الله بالطاعات، وامثال أوامر الله عز وجل لتنالوا رضاه، وتأهلوا للفلاح، الذي هو الفوز بالنجاة من المرهوب، والظفر بالمحبوب المرغوب - الجنة - والسعادة في الدنيا والآخرة (٣).

ثالثاً: التواصي بالحق:

من صفات المؤمن التقى الذي يسعى لنيل رضا الله ورضوانه والفوز بجنته، أنه يحرص كل الحرص على التزام الحق في كل حياته وأمورها، ويحرص على دعوة الآخرين للتواصي بالحق، ومن استجاب فقد انطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

والله سبحانه تعالى يحق الحق بكلماته رغماً عن المشركين الكارهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَبْعَثُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمْ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٥٦٧/٣، المبصر لنور القرآن، لثلاثة صبري، ١٣١/١٨.

هي الندم بالقلب، والاستغفار، والترك بالجوارح، والإضمار أن لا يعود؛ ولهذا أوجب الله تعالى التوبة على عباده، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

والتوبة تكون بالقلب واللسان والجوارح، فبالقلب يكون التضرع، والتذلل، وباللسان الاعتراف بالظلم والاستغفار، فعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله عز وجل، إلا غفر له) (١) (٢).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم ٤٠٦، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة، رقم ١٣٩٥، وحسنه الترمذي.

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين، الغزالي، ص ١٤٣، قطوف دانية من الكتاب والسنة، محمود القيسية، ص ١٨١.

وهو ضرورة لازمة لأهل الإيمان؛ لأنهم أشد الناس تعرضاً للأذى والابتلاء في أموالهم وأنفسهم، وفي كل عزيز لديهم، وكان أولوا العزم من الرسل أشد المرسلين ابتلاءً، فكان صبرهم محل القدوة والأسوة، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْدُكَ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ولأهميته أمرنا الله به، في قوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَنفَشِلُوا وَتَذْهَبَ رِجْزُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦].

وأخبر الله أنه مع الصابرين في صبرهم في قوله تعالى أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

يعينهم الله على المشاق، وما يواجهونه في حياتهم، ويكافئهم على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

أنواع الصبر ثلاثة: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على المصيبة^(١).

دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُعْجِرُونَ ﴿٨﴾ [الأفقال: ٧-٨].

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبَدَعَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحَقِّقِ الْحَقَّ يَكَلِّمُتِمَّهُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

هذا هو حال الله، ولما لا نكون ممن يتمسك بالحق، ونحرص على نشره وتطبيقه، وأن نتقي الله في ذلك؛ لأن به الفلاح في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

رابعاً: التواصي بالصبر:

الصبر فضيلة من أمهات الفضائل، وهو من أبرز الأخلاق التي عني بها القرآن العظيم، ويعتبر من دلائل صدق الإيمان، ووسيلة ضرورية يستعان بها في هذه الدنيا، وهو الدواء الشافي لنفس المصاب حيث يخفف حزنها وآلامها، فذلك الصبر ضروري للإنسان لما له من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فهو ضرورة لازمة له ليرقى مادياً ومعنوياً، ويسعد فردياً واجتماعياً، فلا ينتصر دين، ولا تنهض أمة إلا بالصبر، والصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر.

(١) انظر: الأخلاق في الإسلام، كايد فرعوس

والمؤمن الذي يستجيب لأمر الله فيتحلى بالصبر، ويصبر على ما يصيبه فقد أعد الله له الجزاء العظيم، فأولاً يستحق البشري.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال أيضاً: ﴿وَلِينَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وكذلك بيّن الله أنه يحب أهل الصبر في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ويعدهم الله بمضاعفة الأجر، فقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصاص: ٥٤].

وبيّن الله أيضاً أن ثوابهم غير محدود، بل هو موكول لفضل الله تعالى الذي لا حدود له ولا قيود.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤِثِّرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولهم الفوز والفلاح يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

يحض الله تعالى المؤمنين في هذه الآية

وخالد القضاة وغيرهم، ص ١٢٣.

على ما يوصلهم إلى الفلاح وهو: الفوز بالسعادة والنجاح، والطريق الموصل إلى ذلك هو: لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس عما نكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم الله بالصبر على جميع ذلك، وأمرهم بالمصابرة أيضاً وهي: لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه^(١).

وقيل: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ بمعنى واحد للتأكيد، وقال الحسن، وقادة، والضحاك، وابن جريج: اصبروا على طاعة الله في تكاليفه، وصابروا أعداء الله في الجهاد. ورابطوا في الثغور في سبيل الله، وقيل: استعدوا للجهاد^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: «خافوه فلا تعصوه، واعملوا بما أنزل، ولا تهملوه، وارضوا بما قسم فلا تكفروه، واستعدوا ليوم الرحيل فلا تنسوه، ثم تأتي النتيجة بعد ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٢٩.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٤٨٥.

عقوبة الخاسرين

ذكر القرآن الكريم بعضاً من العقوبات التي تلحق بالخاسرين في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: عقوبة الخاسرين في الدنيا:

فعقوبة الخاسرين في الدنيا، حرمانهم من أفضل نعمة أنعمها الله علينا ألا وهي نعمة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

يقول الماوردي: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فيها تأويلان:

أحدهما: أنهم خسروا بالكفر منازلهم وأزواجهم في الجنة؛ لأنه ليس أحد من مؤمن ولا كافر إلا وله منازل وأزواج، فإن أسلموا كانت لهم، وإن كفروا كانت لمن آمن من أهلهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١].

والثاني: معناه: غبنوها فأهلكوها بالكفر والتكذيب^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنِّي أَعْتَصَمْتُ عَصَاكَ وَأَتَّبَعُوا مَن لَّيَزِيدُهُ مَالَهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

تَقْلِحُونَ ﴿١﴾، أي: لتفلقوا، وتلك نتيجة أكيدة ويقينية، فمن صبر، وصابر، ورابط، واتفق الله نال السعادة في الدنيا، ودار الكرامة في الآخرة، وسعد برضوان من الله ذلك هو الفوز العظيم^(١).

(١) في رحاب التفسير، كشك، ١/٧٦٣.

(٢) النكت والعيون، ٢/١٠٠.

فتوضح هذه الآيات أن سبب حرمانهم من الإيمان، انغماسهم في ملذات الدنيا وشهواتها وذلك بالانشغال في جمع الأموال وإكثارها، والانشغال بالأولاد، والسعي وراء الشهرة والمكانة، مع غيرها من الأسباب الأخرى، ألهاهم ذلك كله عن الإيمان بالله وعبادته وذكره، وبالفساد في الأرض بكل أشكاله، فكان سبباً في خسارتهم، وبإضلالهم وعدم هدايتهم، وعدم نيل مغفرة الله ورحمته، وأن يغفل عن شيء مهم، وهو أن الله عز وجل أوجدنا على سطح الأرض في هذه الحياة الدنيا لهدف وغرض، ألا وهو عبادة الله سبحانه وتعالى.

والدين إذا لم يصل بصاحبه إلى هذا الخضوع والانقياد لله تعالى كان رسوماً وتقاليد لا تجدي شيئاً، بل تزيد النفوس فساداً، والقلوب ظلاماً، ويكون حينئذ مصدر الشحنة والعداوة بين الناس في الدنيا، ومصدر الخسران في الآخرة بالحرمان من النعيم المقيم، والعذاب الأليم، وبالتالي يكون جزاء من يقبل بغير الإسلام ديناً أنه في الآخرة من الخاسرين؛ لأنه أضاع ما جبلت عليه الفطرة السليمة من توحيد الله والانقياد له، كما جاء في الحديث الشريف: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج

البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟^(١).
فخسر نفسه بضياح رضوان الله، وخسر النعيم المقيم، ورحمة الله، فألقي في الجحيم^(٢).

اللهم هب لنا الإخلاص، وأنزله بصائرنا، وامنحنا قبولك ورضاك يا أرحم الراحمين. ومن العقوبات للخاسرين في الدنيا أيضاً حبوط الأعمال وخسارتها، فلو تساءلنا كيف يخسر الإنسان أعماله؟

كما نعلم أن العمل للآخرة ميدانه هذه الحياة الدنيا، ومدته لكل إنسان عمره، من حين يبلغ الحلم، إلى أن يدركه الأجل، وهو لهذا جاء إليها، وأعطى الفرصة فيها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾ [الملك: ٢].

فكل إنسان يجازى على حسب عمله في الحياة الدنيا، فإن عمل عملاً حسناً نال الجزاء الحسن، وإن عمل عملاً سيئاً، نال الجزاء السيئ على حسب عمله، كما يقال: إن الجزاء من جنس العمل، عن أبي بكر أن رجلاً قال: (يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: (من طال عمره وحسن عمله). قال: فأأي الناس شر؟ قال: (من طال عمره وساء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨٥/٢، تفسير المراغي، ٢٠٤/١، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ١٣٠٢/٣.

عمله^(١).

المستقيم وأكثر من فعل المعاصي، وارتكاب الآثام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝١١ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا ۝١٢ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۝١٣﴾

[الفرقان: ٢١-٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٥﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

وقال أيضًا: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَٰئِكَ فَاسْتَغْنَوْا فَخَلَقْنَاهُمْ مَخْلَقَةً فَاسْتَغْنَوْا كَمَا اسْتَغْنَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعَتْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٦٦﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَعَنَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ۝٥٣﴾ [المائدة: ٥٣].

في هذه الآية بيان أن أعمال المنافقين باطلة، وكما نعلم بأن البطلان كلمة مرادفة

والله يراقب أعمال العباد وينظر إليها، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝١١﴾ [يونس: ٦١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)^(٢).

إذن لا بد للإنسان من الجهد والاجتهاد للإكثار من القيام بالأعمال الصالحة التي يرضى الله عنها، حتى يكون مثواه الجنة.

عن عمران بن حصين قال: قال رجل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: (نعم). قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: (كلُّ يعمل لما خلق له، أو: لما ييسر له)^(٣).

ولكن قد يخسر الإنسان كل أعماله فتصبح هباءً منثورًا؛ إن حاد عن الطريق

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب أي الناس خير وأيهم شر، رقم ٢٣٣٣.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم ٦٥٤٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله، رقم ٦٥٩٦.

للخسارة، إذن حبوط وبطلان أعمالهم جعلهم يخسرون في الدنيا والآخرة.

يقول سيد قطب: «ولقد جاء الله بالفتح يوماً، وتكشفت نوايا، وحبطت أعمال، وخسرت فئات، ونحن على وعد من الله قائم بأن يجيء الفتح، كلما استمسكنا بعروة الله وحده، وكلما أخلصنا الولاء لله وحده، وكلما وعينا منهج الله، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا، وكلما تحركنا في المعركة على هدي الله وتوجيهه، فلم نتخذ لنا ولياً إلا الله ورسوله والذين آمنوا»^(١).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: المخلصون للمنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، أهؤلاء يعني: المنافقين الذين أقسموا بالله شدة أيمانهم، فإذا حلف الرجل بالله فقد حلف جهد يمينه، إن هؤلاء المنافقين مع المخلصين على دينكم في السر، فكانت النتيجة بطلان حسناتهم في الدنيا، فصاروا مغبونين بالعقوبة^(٢).

ثانياً: عقوبة الخاسرين في الآخرة:

إن أخص ما يملكه الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وأقرب شيء إليه، هي نفسه التي بين جنبيه، وأهله المقربون إليه من زوجة وأبناء

وأحفاد وأرحام، فإذا خسر نفسه أو أهله فقد خسر أخص شيء وأقربه إليه، وعلى ذلك فإن خسارته سواء أكانت في نفسه أم في أهله، أم في حياته أم في آخرته، فإنها هي المصيبة العظمى والطامة الكبرى، لكن كيف يمكن أن يخسر الإنسان نفسه؟ وكيف يمكن أن يخسر أهله في الآخرة؟ هذا ما ستوضحه الآيات مع تفسيرها:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كُنَّبَ عَلٰى نَفْسِهٖ الرَّحْمَۃُ لِيَجْمعَنَكُمۡ اِلٰى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيْهِۚ الَّذِيۡنَ خَسِرُوۡا اَنْفُسَهُمۡ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوۡنَ﴾ [الأنعام: ١٢].

تحدث الآية الكريمة عن قدرة الله في الخلق فهو الخالق والمالك والمتصرف به، وعن قدرته على بعث الخلائق، ولكن أبى الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق فأوضحوا في معاصيه، وتجروا على الكفر به، فكانت النتيجة أنهم خسروا دنياهم وأخراهم، وحكموا على أنفسهم بالهلاك لمخالفة الفطرة الأولى وستر العقل السليم، فهم بسبب خسارتهم لأنفسهم يإهمال العقل، وإعمال الحواس، والتقيد بالتقليد لا يؤمنون، فصاروا كمن يلقي نفسه من شاطئ ليموت لغرض من الأغراض الفاسدة^(٣).

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٩١٧.

(٢) انظر: الواضح في تفسير القرآن الكريم، ابن وهب الدينوري، ١/ ٢٠١، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥١٩.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٥٩٥، تيسير

شيئاً، ولم تعد لهم نفس تؤمن! وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة، إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله، هؤلاء لابد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم، وأجهزة الاستقبال، والاستجابة الفطرية في كياناتهم معطلة مخربة، فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها^(١).

وقوله أيضاً: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢].

يقول محمد رضا في تفسيره: «كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ تفيد التحقيق والتأكيد لما بعدها، قال الفراء: هي في الأصل بمعنى: لابد ولا محالة، ثم كثرت فحوّلت إلى معنى القسم وصارت بمعنى «حقاً»، ولهذا تجاب باللام نحو: لا جرم لأفعلن كذا، أي: حقاً أنهم في الآخرة لأشد الناس خسراناً»^(٢).

وفي الآية تأكيد وإثبات لما يناله هؤلاء الجاحدون المنكرون في الآية السابقة من العذاب الشديد، والخسران الأكيد، حيث أكد الله سبحانه وتعالى في الآية بأنهم لا محالة يوم القيامة أشد الناس خسراناً،

(١) في ظلال القرآن، ١٠٤٧/٢ - ١٠٥٣، باختصار.

(٢) تفسير المنار، ٥٧/١٢.

يقول سيد قطب: «هذه الآية ذات المد العالي والإيقاع الرهيب، تجيء في أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء، وما ختم به هذا الحديث، وما تخلله من التهديد المخيف، مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين، فيأتي بعد هذا التعرض لحقيقة الألوهية، ممثلة في الملك والفاعلية، وفي القدرة والقهر، كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي، ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه، وتوحيد الاستسلام والعبودية.

فيأتي موقف المواجهة للبيان والتقرير، ثم المفصلة، ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول لهذه المواجهة مواجهة المشركين، الذين يعرفون أن الله هو الخالق، ولكنهم أغلقوا فطرتهم وعطلوها دون رؤية هذه الحقيقة، فعدلوا به من لا يخلق، فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم، مواجهتهم بالسؤال عن الملكية بعد الخلق لكل ما في السموات والأرض، وبالتالي لن يخسر في هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا في الدنيا، وهؤلاء لن يخسروا شيئاً ويكسبوا شيئاً، هؤلاء خسروا كل شيء، فقد خسروا أنفسهم كلها فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا

يقول محمد أبو زهرة: «وخسران نفوسهم في هذا يشير إلى معاني ثلاثة، وهي على النحو التالي:

أولها: أنهم هم الذين كانوا بأعمالهم في الدنيا عاملين على خسارتها، فلم تكن الخسارة لاحقة بهم من غيرهم.

ثانيها: أن العذاب خسارة للنفس أي خسارة، وأنهم هم الذين جلبوا لها هذه الخسارة الخالدة.

ثالثها: أنهم كانوا يحسبون في ضلالهم في الدنيا أنهم يكسبون بغطرتهم وكبريائهم واغترارهم بمظاهر القوة، فيبين الله تعالى أنهم الأخسرون أعمالاً، وذلك عند ميزان الأعمال بميزان الخير والشر، لا بميزان الغرور والاستكبار»^(٣).

ونختم بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ ذُنُوبُهُمْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وأنهم بلغوا في الآخرة أقصى درجات الخسارة؛ لأنهم آثروا الحياة الفانية على الباقية، واشتروا الضلالة، ولذا جاء جمع «الأخسرون» فأفعل التفضيل يدل على أقصى درجات الخسارة، لا خسارة فوقها أو مثلها، بل هي فوق كل خسارة^(١).

ومن العقوبات الأخروية أيضاً دخول نار جهنم والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

في هذه الآية يبين جزاء المكثرين من الأعمال السيئة، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ أَي: موازين أعماله الحسنة أو أعماله التي لا وزن لها ولا اعتداد بها، وهي أعماله السيئة كذا قيل، وهو مبني على اختلافهم في وزن أعمال الكفرة.

فهؤلاء ضيعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، وبالتالي خسروا أنفسهم بزجها في نار جهنم، وهم مستقرون خالدون فيها^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، الجنة، السعادة، العذاب، الفلاح، النار

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٣٦٩٤/٧، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٢٢/١٢.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨٣/٥، روح المعاني، الألويسي، ٩٩/١٧.

(٣) زهرة التفاسير، ٢٧٨٩/٥.